أين يقف الشعر الجزائري بين الإبداعات الأدبية الأخرى؟
وما هو دوره في معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية الراهنة؟

الإبداع الشعري الجزائري في الميزان النقدي

إن الإبداع الشعري الراهن في الجزائر أخذ مكانته المرموقة كتعبير أدبي، فتفتح على آفاق وأعماق وأبعاد غاية في الحداثة، فاقتحم الساحة الواسعة للحياة بكل مكوناتها السياسية والاجتماعية. فغمر النتاج الشعري المعاصر صفحات الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية. وفي هذه المرحلة بدأت الجرائد اليومية كالشعب والعالم السياسي تفرد صفحات كاملة للإبداع الشعري، حتى أصبحت بمثابة مادة تكاد تكون يومية، ولمع من كتابها عدد غير قليل كان يتحلى بالجدية والتفرد الإبداعي المميز.

وكان حتمًا ولزامًا نتيجة للتطور الثقافي والاجتماعي نفسه أن يتأثر الإبداع الشعري في تفاعله مع واقع الحياة المتطور بالتيارات الفكرية التي بدأت تهب على الساحة الأدبية الجزائرية.

بقلم : مصطفى بلمشري
الجزائر

والإبداع الشعري الجزائري إبداع أصيل وصادق وعطاء متواصل، فهو يعكس صراع الحياة بشكل جيد، وهذه المرحلة بالذات تجعل الشعر بصورة خاصة يتميز بملامح واضحة تحاول أن تجد فلسفة فنية تسهم في صنع حضارة أدبية معاصرة.

ويمكن القول، أن الشعر لغة وصورة وموسيقى وإمتاعاً وأداء بناء فكري ووسيلة إصلاح وتقويم، يبقى الفن الأدبي المعبر عن شخصية الأمة، متميزًا بقدرته الفذة على استيعاب أحداث التاريخ، متجهًا نحو منطلقات فنية متفتحة جديدة.

وعند التصدي لتحليل الإبداع الشعري الجزائري الراهن، تطفر في الذهن أسئلة هامة، عن المصدر الذي يستمد منه الشعر أصالته وعطاءه الإبداعي في تطوره الحديث؟

وأين يقف الشعر الجزائري؟ وما هي منزلته بين الأجناس الأدبية الأخرى؟.. وما هو دوره الطبيعي في معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية الراهنة؟

يترجم الشاعر عبد الرحمن عزوق فلسفة المعاناة عند الإنسان العربي، ويعبر عن عمق الأذى الذي لحق بالأمة العربية الإسلامية في فلسطين.

وللوصول إلى أجوبة صحيحة على هذه التساؤلات، يجب أولاً أن نعلم أن الشعر يستمد أصالته من الثقافة العربية الأصيلة، ومن التراث الأدبي العريق الذي تمتد جذوره إلى العصور الغابرة، والذي عبّر تعبيرًا صادقًا عن هويتنا الحضارية.

وليس من شك، في أن الشعر الجزائري في عصرنا الحاضر يحظى بنصيب وافر من الأهمية والتقديس، فإن ما شهده الشعر من تطور يجعله في مصاف الفنون الإبداعية المتميزة، بحيث شهد العقد الأخير إصدارات متعددة في هذا الفن الأدبي، متفاوتة الجودة ومتباينة الاتجاه والمنحنى من الناحية الفنية الجمالية، فالصحف الوطنية تطالعنا كل يوم، وهي تدفع في كل مرة بأسماء جديدة ومواهب شعرية واعدة، تضيف دومًا قسمات وملامح إبداعية إلى شخصية الإبداع الشعري الجزائري، كما تستمر الجمعيات الثقافية والنوادي الأدبية في استضافة الأمسيات الشعرية. وتنظيم الأيام الدراسية الأدبية خير دليل على ازدهار الحركة الشعرية في الجزائر.

وكذا تنظيم مسابقة مفدي زكريا للإبداع الشعري من قبل الجمعية الثقافية الجاحظية لأكبر دليل على المكانة التي يحتلها الشعر في الساحة الأدبية.

عمار بن زايد:

والدارس للشعر الجزائري المعاصر يلمس ذلك التنوع في الأغراض والتعددية الفنية من رمزية وسريالية وواقعية نقدية ورومانسية، كما يلمس تعدد القوالب وتنوع المدارس والتيارات، بحيث كان الطابع المميز للإبداع الشعري الذي ظهر جليًا في الدواوين الشعرية هو الجنوح إلى الرمزية وتبني الصور الإيحائية المدهشة مع إيلاء الأهمية للحدث النفسي الداخلي عند الشاعر.

وهذا الشاعر عمار بن زايد في ديوانه (رصاص وزنابق) يعكس لنا الفكر الإنساني الذي يتفق وطبيعة المجتمع ويتجاوب معه الإنسان البسيط الباحث عن كرامته وسعادته في ظل صراعات نفسية واجتماعية. ففي قصيدة (رسائل سريعة ص٣١، نفحات شعرية مشرقة تخصب المشاعر بقيم إبداعية وتخيلية جديدة، كما تحمل في مضمونها آمال وأحلام وطموحات الإنسان.. إذ يقول:

بعد حبي.. بعد أشواقي الكبيرة..

اسمعي الآن إلّي..
أعلني ما شئت من حرب عليّ..
جنِّدي كل حراب العالم.. الموبوء ضدي..
فتّشي من كل باب للحروب الهمجية..
جندي حتى الحجارة..
واسلكي كل سبيل للخسارة..
مزقي ما شئت من حلم لديّ..
فيه خيط من يديك..
أسف يعصر قلبي..
أسف ليس عليّ.. بل عليك..
هكذا الحب وإلا كان جبنا وهزيمة..
بعد حبي.. بعد أشواقي الكبيرة..
سوف أروي لك أشياء صغيرة..

فالقصيدة خلاصة تجربة الحب التي عاشها الشاعر عمار بن زايد، وهي تجربة عميقة وأصيلة في أكثر من موقف مع رؤيا حبيبته، فالقصيدة تجسيد لإحساس عميق عند الشاعر بجمود الحب وبتوقف الحياة في وجهه أمام الجدار المسدود بينه وبين محبوبته، فهي صور إيحائية تكشف أشواقه الكبيرة ليرى حبيبته فيروي لها أشياء صغيرة عن حروب خاضها ذات مساء.

كما أنه يلتفت للعالم العربي فيعالج قضاياه المتوترة حيث يقول:

للمحيط ألف قبلة..
ألف قبلة.. للجزيرة..
قبل أن يأتي المساء.. بالألاعيب المثيرة..
قبل أن تمتد للجيد سكاكين العشيرة..
ألف قبلة يا أميرة..

ففي هذه المقطوعة يجمع الشاعر عمار بن زايد بين الإبداع وحسن توظيف الرمز وجودة الأسلوب الذي نقل إلينا الفكرة، فالشاعر يتميز بالتمرد والثورة على كل ما يعوق الحياة الكريمة للإنسان العربي الحر الرافض لفكرة الاستعباد، فهو ينشد السلم والسلام ويسعى للأمن والأمان وهذه قيم ومبادئ مشروعة، مسعى ومطمح كل الأحرار في هذا الكون.

عبدالرحمن عزوق:

أما الشاعر عبدالرحمن عزوق فيطل علينا بإبداع شعري يشع جمالاً فنيًا وقدرة على توظيف لغة شاعرية سلسة وأسلوب مرن يشهد لصاحبه بالمقدرة على الإبداع الأصيل، فهو يقول في قصيدة "بغداد تعانق يافا" ص١٤ من ديوانه "آفاق في زمن النفاق":

حظها يكبر اليوم في روضة العشق..
ورد التشوق..
زهر الربى الغائبات..
خيمتي تزخر اليوم بالشوق..
هنا في فؤادي.. اختفت درة الحب رغم السلاسل..
إنه موطن السعداء..
يزف التهاني إلينا..
فيشكره الفجر والبحر.. والعوسج الغض..
ذرانا استفزت.. تصارع ثلوج الفناء..
وتنوي قتال المنايا..
وينكشف الحلم.. يصعد ضوء الفصول..
إن بغداد ملكة الحب والسحر والشعراء..
أي بحر عميق يشابه يافا..

إن موضوع المعاناة كما يراه عبدالرحمن عزوق، وهو تجربة الفرح المطلق المتجسد في التعانق والتلاقي بين مدينتين عربيتين عريقتين في الحضارة الإسلامية، فيافا المدينة الساحرة بجمالها دأبها الاخضرار على ضفافها الحقول تطل منها الجميلات لأنها موطن السعداء تصارع ثلوج الفناء بكبرياء وصمود تنوي قتال المنايا ليصعد ضوء الفصول.

وكأن الشاعر عزوق يود من خلال طرحه الجديد لفلسفة المعاناة، أن يلاشي الصورة الباهتة للأذى الذي لحق بالأمة العربية، هذا الأذى الذي ما زال يتسكع في موطن فلسطين يمتد أخطبوطاً في خلايا مدنها التاريخية، فهو يوشك وشم هذه المعاناة فوق مدينة يافا، فيغوص في عمق الأشواق، إذ يقول في هذه المقطوعة:

أسكن عمق مسافته..
في مساء المدينة..
في شقة النقمة العائرة..
تود المدائن لو أن صوتي يدنو..
ويسمع رغم ضجيج العيون..
أترك صوتي فوق الضجيج..
ليحمل من عمرها ساعة حاسمة..
وصوت حياة على قرية خائفة..
وقال الأذى إنني.. أتجدد مثل الزمان..
على صهوة الشروق.. ترفرف أعلامه..
ويسمو كما نجمة في السماء..

علي ملاحي:

أما الشاعر علي ملاحي فهو الآخر قد سرح في العمل الإبداعي الواعي بين الأحاسيس والمشاعر العاطفية المتأججة وبين المعاناة التي تفترش بساطاً فسيحًا من حياة الناس، ويتجلى لنا ذلك في قصيدة "مذكرة العشق الناتئ" والتي يقول فيها:

تناهت إلى قلبها الذكريات..

يعكس الشاعر عمار بن زايد الفكر الإنساني الذي يتفق وطبيعة المجتمع، ويتجاوب معه الإنسان البسيط الباحث عن كرامته وسعادته وسط الصراعات المتعددة.

الحقول استراحت إلى الماء في تؤدة..
سربلت شعرها في لجاج التطلع..
واستنطقت خصرها المشتهى..
ثم قامت توزع من ثمرها..
وتزيح الستار..
ابتهاجًا بعيد الطفولة.. في ساحة الشهداء..

فالشاعر علي ملاحي يكشف لنا عن تجربة إنسانية تجسد موقفه كفنان مبدع من قضايا الناس والحياة، فيتنبأ بالسعادة المفقودة وهذا الفردوس الضائع المتشكل من عهد الطفولة والذي انتزعه الزمن من يدي هذه المرأة التي تناهت الذكريات الحلوة على قلبها فاستيقظ في نفسها عشق ناتئ في كنف الرذيلة التي كانت أمام البنفسج بعض انشغال توسده الجرح حين اندلاع العواطف الجياشة في جبهة اليوميات كما جاء في هذه المقطوعة الشعرية.

وبعد ذلك يواصل حديثه في نفس القصيدة ليرسم لنا الأمل الخافت والحنين الدائم إلى ذلك الفردوس:

في الخواطر مناسبة أمنيات الفحول..
الشدائد طعم الحياة الوديعة..
فالتزموا حذركم من هبوب الصعاب القريبة..
قالت نسيم الأحبة فيض النشيد..
وبركة خير يفاتحه القلب لما ينوء الظلام..
وتغرب عن حملتيها شموس الحبيب
الموحد في البال..

ونحن إذا أمعنا النظر في مختلف المواقف الفكرية والاجتماعية، التي عكسها الشعراء، لاستطعنا أن نميز تلك المواقف التي هي أسباب الشقاء في الواقع الإنساني، ومدى ارتباطها بحياة الناس وعكسها لآلامهم وآمالهم.

وهكذا يتبين لنا من هذه الوقفات النقدية مع هذه النماذج الشعرية أن الأصوات الشعرية التي بدأت ترسخ حضورها الإبداعي، ما هي إلا بشائر ودلائل على أن الشعر ما زال حيًا، وإن تغير مفهومه واختلفت وظيفته، وقل الأصيل المبتكر فيه.